تاريخ الجهمية والمعتزلة *

(٨) تلقيب الجهمية بالجبرية

اشتهر عن جهم القول بالجبر (بفتح الجيم وسكون الموحدة) وهو اسناد فعل العبد الى الله تعالى، ففي المواقف للعضد وشرحها للسيد: الجبرية متوسطة تثبت للعبد كسبا كالاشعرية — وخالصة لا تثبته كالجهمية قالوا: لا قدرة للعبد أصلا لا مؤثرة ولا كاسبة بل هو بمنزلة الجمادات فيما يوجد منه اهـ

لم يعد العضد في المواقف الجهمية فرقة على حدتها كما فعل غيره من أرباب المقالات، بل جعلها قسما من الجبرية، فلذا عبر المتوسط عليها من المواقف الآتي بالجبر، وقد عرفتها

والجبر المذكور هو أحد آراء الجهمية، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: ليس الذي أنكروه على الجهمية مذهب الجبر خاصة، وانما الذي أطبق السلف على ذمهم بسببه انكار الصفات حتى قالوا: ان القرآن ليس كلام الله وانه مخلوق اهـ

وعلى قول العضد الاشعرية جبرية متوسطة، اذكر ما قاله العلامة المقبلي في العلم الشامخ[1] وعبارته: لما رأى محققو الاشاعرة بطلان مذهب جهم بالضرورة، وعود مذهب الاشعري واتباعه اليه بادني الملم، واضمحلال الكسب كيفما قلبته، وبطلان سعي أهله، تساهلوا عنه لواذا، ففهم الراجع الى الحق صريحا، ومنهم المقارب ولكن مع التستر باللجج بعبارات الاسلاف

*) تابع لما نشر في ج ٧ م ١٦ ص ٥٣٤ (١) طبع مصر

وتمويه التقارب فيما بينهم وبين الاشعري والكون تحت رايته ، وقد رفضوه ونسبوه الى انكار الضرورة من حيث المعنى : ثم سمى المقلي من هؤلاء المحققين امام الحرمين والفخر الرازي وغيرهما فانظره

* *

(٩) التنبيه لما وقع من خلل النقل عن الجهمية وغيرهم

أرى من واجب كل من يؤرخ مذهب قوم ، وكل من يناقش فرقة ما في مذهبها ، ان ينقل آراءها عن كتب علمائها الثقات ، ويقوم بالعزو الى مآخذها ومصادرها ، لتكون النفس في طمأنينة مما يريبها ان لم يعن بهذا الواجب — هذا كله اذا أمكن الظفر بكتبها نفسها ، وآرائها التي دونتها رجالها — والا فعلى النهم بتعرف الحقائق ان يأثر عن كتب الائمة المحققين ما أثروه ، ويبني على ما بنوه مع التحري والتيقظ ، وما على باذل جهده من ملام

وبالجملة فلا بد من السند في قبول ما يعزى ويروى الى تلك الفرقة ، فإما عن اسفارها أو عن امام ثقة أثر عنها ، وأما رمي فرقة برأي ما بدعوى انه قيل عنها ذلك أو يقال ، فما لا يقام له وزن في الصحة والاعتماد ، فلا يتعانى في رده أو مناقشته ، وهذه القاعدة يجب ان تؤخذ دستورا وأمرا عاما في كل ما يؤثر وينقل ، وأصلها مما نبه عليه أئمة الرواية عليهم الرحمة والرضوان ، اذ لم يقبلوا الاثر الا بعد معرفة راويه وضبطه وثقته وعدالته ، اذ ليس من السهل تشريع أمر ايجابا أو حظرا ، تحليلا أو تحريما ، بل أمامه ما امامه من بذل غاية الوسع ، ونهاية الجهد ، في تعرف مورده ومصدره تحريا للحق ، واحتياطا للصواب ، وهكذا في كل ما يؤثر من الاقوال والآراء ، سواء كانت في الاصول أو الفروع أو اللغات أو الاقاصيص ،

ودليل هذا الاصل آية « ولا تقف ، ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا » وآية « قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين »

اذا عرف هذا تبين ان التساهل في الحكاية والنقل لا يقول به المحققون ، ويربأون بأنفسهم عن الخوض فيه . وانما يستروح به المتعصبون والمندفعون وراء كل ناعق ، أو المقلدون بدون تمحيص ونقد

من أعجب ما اتفق لي في ذلك ما رأيته في طبقات السبكي من قوله[1] : واما جهم فلا ندري ما مذهبه ، ونحن على قطع بأنه رجل مبتدع الخ ثم قال[2] واعلم ان جهما غاص في المعاني بزعمه ، وأعرض عن الظواهر فسقط على أم رأسه ، وقامت عليه حجج الشرع ، ومنته عن سبيل الحق أي منع الخ : فتأمل قول السبكي : فلا ندري ما مذهبه : ثم مهجمه عليه ، مع ان السبكي انتقد على ابن حزم في تحامله على الاشعري قبل أسطر وعبارته : وهذا ابن حزم رجل جري ، بلسانه ، متسرع الى النقل بمجرد ظنه ، هاجم على أئمة الاسلام بالفاظه وفي كتابه (الملل والنحل) الازراء باهل السنة ، ونسبة الاقوال السخيفة اليهم ، من غير تثبت عنهم ، والتشنيع عليهم بما لم يقولوه : ثم قال السبكي : ان ابن حزم ما بلغه بالنقل الصحيح معتقد الاشعري ، وانما بلغه عنه أقوال نقلها الكذابون عليه ، فصدقها بمجرد سماعه اياها ، ثم لم يكتف بالتصديق بمجرد السماع حتى أخذ يشنع اه فنقول له : لقد كدت تقع فيما رميت به الامام ابن حزم . ومن نبه على ما وقع من تساهل بعض المؤلفين الامام فخر الدين الرازي في رسالته التي جمعها في المسائل

(١) جزء (١) صفحة (٤٣) طبع مصر (٢) ص (٤٥)

الواقعة له في رحلته الى ماوراء النهر، فقد قال في المسألة العاشرة مامثاله: كتاب الملل والنحل للشهرستاني كتاب حكى فيه مذاهب أهل العالم بزعمه، الا انه غير معتمد عليه، لأنه نقل المذاهب الاسلامية من الكتاب المسمى بالفرق بين الفرق من تأليف الاستاذ أبي منصور البغدادي (قال الرازي) وهذا الاستاذ كان شديد التعصب على المخالفين، فلا يكاد ينقل مذهبهم على الوجه، ثم ان الشهرستاني نقل مذاهب الفرق الاسلامية من ذلك الكتاب، فلهذا السبب وقع الخلل في نقل هذه المذاهب اه كلام الرازي

وهكذا انتقد العلامة المقبلي في العلم الشامخ من ينقل مذهب المعتزلة من كتب الاشاعرة بانه حصل الغلط عليهم في بعض كلامهم. وذكر ان هذا كثير الوقوع في حكاية المذاهب (قال) صحة الرواية تبني على التحري وعدم المجازفة، ثم أثنى على الرازي في تحريه النقل عن المعتزلة وعبارته: قد أكثر الرازي في تفسيره الحكاية عن القاضي وغيره من المعتزلة (ثم قال) الرازي أكثر الناس عناية في هذا الشأن، وأدقهم مسلكا وأوسعهم مجالا، وحاله في كتبه تحرير حجج الخصوم على أبلغ مايمكنه، وليس كسائر الاشاعرة لايعرفون مذهب المعتزلة على حقيقته، ولا ينصفونهم فيما عرفوا (قال) وكذلك الزمخشري تصميما وتلويحا وايماء وتصريحا، كما قال بعضهم انه دس الاعتزال تحت كل ذرة من كتابه

وقال أيضا: علم من المختلفين في العقائد اتباع الهوى وقبول المثالب من دون تثبت: ذكر ذلك في نقده على الذهبي في قوله عن الجاحظ انه بقية قليل دين (قال) هو أجل من ذلك وان تحامل عليه مخالفوه في العقائد، فلا يصدقون عليه، وأصحابه المعتزلة أخبر به، فهو عند المعتزلة

من جلة العلماء ، وعند الجميع مقدم الاذكياء الحكماء اه

وقال أيضاً : وقد صار كل من الفرق يحكي الشر عن مخالفه ويكتم الخير ، بل يروي الكذب والبهت، كما تذكر الاشاعرة أن المعتزلة تنكر عذاب القبر، ترى ذلك فاشيا بينهم ، مع ان النقل عنهم باطل ، وهو شبيه قذف الغافلات ، فان المعتزلة لاتكاد تظن قائلا يقول هذا الا شذوذ ، مثل المريسي وضرار وهما بيت القرائب، مع ان ضراراً ليس من المعتزلة في روايتهم ، لانهم رووا عنه القول بالرؤية بحاسة سادسة ، ورووا عنه القول بخلق الافعال ، وانه رجع عن الاعتزال، (قال) وعلى الجملة فليس شذوذه عن الفريقين بغريب ، وانما المنكر إلزام المعتزلة قوله ، وانما هذه المسألة — كسائر المسائل — لا بد فيها من شذوذ كشذوذات العنبري والظاهرية ، وهذا شيء كثير يطلعك عليه كتب المقالات اه

ويتفرع من هذا البحث مسألة جليلة ، وهي الزام الناس لوازم أقوالهم ، واضافتها اليهم إضافة أقوالهم أنفسهم ، وقد نبه عليها أئمة الاصول قال الامام أبو اسحق الشيرازي في اللمع : ما يقتضيه قياس قول المجتهد لا يجوز أن يجعل قولا له (قال) ومن أصحابنا من قال انه يجوز أن يجعل ذلك قولا له ، وهذا غير صحيح ، لان القول ما نص عليه وهذا لم ينص عليه ، فلا يجوز أن يجعل قولا له اه

ومثله يجري في قولهم : لازم المذهب ليس بمذهب ، وقد رأيت لشيخ الاسلام ابن تيمية تفصيلا في هذه المسألة ، — وهو قوله في بعض فتاويه : لازم قول الانسان نوعان (أحدهما) لازم قوله الحق ، فهذا مما يجب عليه أن يلتزمه فان لازم الحق حق ، ويجوز أن يضاف اليه اذا علم

من حاله انه لا يمتنع من التزامه بعد ظهوره ، وكثيرا مايضيف الناس الى مذهب الأئمة من هذا الباب (والثاني) لازم قوله الذي ليس بحق ، فهذا لايجب التزامه ، اذ أكثر ما فيه انه تناقض ، وقد ثبت ان التناقض واقع من كل عالم غير النبيين عليهم السلام . ثم ان من عرف من حاله انه يلتزمه بعد ظهوره فقد يضاف اليه ، والا فلا يجوز أن يضاف اليه قول لو ظهر له لم يلتزمه لكونه قد قال ما يلزمه ، وهو لايشعر بفساد ذلك القول ولا بلازمه (قال رحمه الله) وهذا التفصيل في اختلاف الناس في لازم المذهب هل هو مذهب أم ليس بمذهب ، هو أجود من اطلاق أحدهما ، فما كان من اللوازم يرضي القائل بعد وضوحه به فهو قوله ، ومالا يرضاه فليس قوله وان كان متناقضاً وهو الفرق بين اللازم الذي يجب التزامه مع الملزوم ، واللازم الذي يجب ترك الملزوم للزومه ، وهذا متوجه في اللوازم التي لم يصرح هو بعدم لزومها ، فأما اذا نفى هو اللزوم ، لم يجز أن يضاف اليه اللازم بحال اه كلامه وهو تفصيل راعى فيه ما عليه أتباع الأئمة من اضافة مايجري على قواعدهم اليهم ، وجعله قولا لهم ، بحجة ان قواعدهم لاتأباه ، أو انه يعلم من حاله انه لا يمتنع من التزامه ، كما قاله تقي الدين ، ولا يخفى ان الاقعد هو التورع عن الاضافة مطلقا ، فان الذي يضاف الى المرء هو ماقاله أو رواه عنه ثقة ، وأما تعويل الانسان مالم يقل والزامه إياه ، وأخذ نتائج منه ، فهذا لايدل عليه منقول ، ولا يؤيده معقول ، ولا جرى عليه التابعون باحسان . وانما نشأ هذا لما استفحل أمر التقليد ، وعوملت أقوال المتبوعين معاملة أقوال المعصوم ونصوص الكتاب نعوذ بالله من ذلك ، وذلك ظاهر لمن له أدنى المام بسير القرون ، واختلاف

حال السلف عن الخلف في تحمل العلوم على أصولها

* *

(١٠) تمثل الشعراء بمذهب الجهمية

قال الامام ابن تيمية في كتابه « موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول » : أصل قول الجهمية هو نفي الصفات بما يزعمونه من دعوى العقليات التي عارضوا بها النصوص اذ كان العقل الصريح الذي يستحق أن تسمى قضاياه عقليات موافقا للنصوص لا مخالفا ، ولما كان قد شاع في عرف الناس ان قول الجهمية مبناه على النفي صار الشعراء ينظمون هذا المعنى كقول أبي تمام :

جهمية الاوصاف الا انهم قد لقبوها جوهر الاشياء اه

* *

(١١) بيان ان مذهب الجهم متلقى عن الجعد ابن درهم وشيء من أنباء الجعد وقتله

روى الأئمة ان أول من قال بخلق القرآن وخاض فيه وصيره هجّيراه الجعد بن درهم ، وكان مؤدب [1] مروان آخر ملوك بني أمية ، ولذا كان يلقب مروان بالجعدي ، لانه تعلم من الجعد مذهبه في القول بخلق القرآن والقدر وغير ذلك ، وكان الناس يذمون مروان بنسبته اليه ، قاله ابن الاثير

---

(١) المؤدب : معلم الأدب ، وهو رياضة النفس على حسن الاخلاق وفعل المكارم ، بمثابة المربي والمرشد ، أو معلم العلوم الادبية . ولا يخفى ان الامراء تعنى باتقاء امثال الفضلاء لتربية ابنائها على العلوم والاخلاق الفاضلة

وقال الحافظ ابن عساكر في تاريخه : أقام الجعد بدمشق حتى أظهر القول بخلق القرآن ، فطلبه بنو أمية فهرب وسكن الكوفة ، فلقيه بها الجهم بن صفوان فتقلد عنه هذا القول

وقال ابن الاثير في سيرة هشام : قيل ان الجعد بن درهم أظهر مقالته بخلق القرآن أيام هشام بن عبد الملك فأخذه هشام وأرسله الى خالد القسري وهو أمير العراق وأمره بقتله ، فحبسه خالد ولم يقتله ، فبلغ الخبر هشاما ، فكتب الى خالد يلومه ويعزم عليه أن يقتله ، فأخرجه خالد من الحبس في وثاقه ، فلما صلى العيد يوم الاضحى ، قال في آخر خطبته : انصرفوا وضحوا تقبل الله منكم ، فاني أريد ان أضحي اليوم بالجعد بن درهم ، فانه يقول ما كلم الله موسى ، ولا اتخذ ابراهيم خليلا ، تعالى الله عما يقول الجعد علوًّا كبيرا : ثم نزل فذبحه اه

وقال ابن تيمية في الرسالة الحموية : أصل فشو البدع بعد القرون الثلاثة وان كان قد نبع أصلها في أواخر عصر التابعين (ثم قال) وأول من حفظ عنه مقالة التعطيل في الاسلام هو الجعد بن درهم ، وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها فنسبت اليه اه ومراده بالتعطيل حمل الصفات الربانية على المجاز المستلزم للتعطيل لان التعطيل من لوازم مذهبه

***

(١٢) نبذة من أخبار خالد بن عبد الله القسري قاتل الجعد أستاذ الجهم

اشتهر هذا الامير بقتل الجعد ، وحكى ذلك كل من رد على الجهمية ومن الناس من أثنى عليه بقتله ، وعده غيرة على الدين ، ومنهم من رأى ان قتله كان لامر سياسي الا انه موه باسم الدين اقناعاً للعامة بقتله . ثم

منهم من وهم ان هذا الامير كان من الاخيار لاثره هذا ، ومنهم من رأى عكس هذا . ولما كان من متمات بحثنا هذا إماطة الحجاب عن الارتياب في هذا الرجل عولنا على أئمة التاريخ في ترجمة حاله[1] وملخصها ان خالدا هذا هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد بن كرز من بجيلة، فأما جده (يزيد) فانه أسلم مع أبيه أسد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه رواية يسيرة ، ثم خرج في عهد عمر رضي الله عنه الى الشام ، فكان بها وكان مطاعاً في اليمن عظيم الشأن ، ثم صار من قواد معاوية وأمراء بعوثه

وأما ابنه (عبد الله) فلم تكن له نباهة آبائه ، وأهل المثالب يقولون انه دَعيّ ، وكان مع عمرو بن سعيد بن الاشدق على شرطته أيام خلافة عبد الملك بن مروان ، فلما قتل هرب ، حتى سألت اليمانية عبد الملك فيه لما أمن الناس عام الجماعة فأمنه ، ثم مضى عبد الله الى حبيب بن مسلمة الفهري وكتب له ، وكان كاتباً مفوّهاً ، وذلك في خلافة عثمان بن عفان فنال حظا وشرفاً . وكان يقال له خطيب الشيطان، ووسم خيله (القسري) ثم تدسس ليملك خيلا في بلاد قسر[2] فمنعته بجيلة ذلك أشد المنع ، فلم يقدر عليه حتى عظم أمره

ثم نشأ ابنه خالد بالمدينة ، وكان خالد — هذا المترجم — في حداثته يتبع المغنين والمخنثين، وكان يقال له (خالد الخِرّيت[3]) وقع في شعر عمر بن أبي ربيعة تلقيبه بذلك . ثم صار في مرتبة أبيه بعده ، الى أن ولاه هشام

(١) كالطبري وابن الاثير والاغاني (٢) بفتح القاف وسكون السين بطن من بجيلة . وبجيلة كسفينة حي باليمن من معدّ اه قاموس (٣) الخريت الدليل العارف بأخرات الارض اي مضايقها

ابن عبد الملك العراق سنة (١٠٥) واستمر الى أن عزله هشام سنة (١٢٠)

وكان الاسلام بالعراق في عهد خالد ذليلا ، فكان يولي النصارى والمجوس على المسلمين ، وكان أهل الذمة يشترون الجواري المسلمات ويطؤهن ، فيطلق لهم ذلك ولا ينير عليهم . وسبب ذلك ان أم خالد كانت رومية نصرانية ، ابتنى بها أبوه في بعض أعيادهم فأولدها خالدا وأسدا ، ولم تسلم هي ، وبنى لها خالد بيعة في قبلة المسجد الجامع بالكوفة فكان اذا أراد المؤذن في المسجد ان يؤذن ضرب لها بالناقوس ، واذا قام الخطيب على المنبر رفع الناس أصواتهم بالقراءة ، فذمه الناس والشعراء ، فمن ذلك قول الفرزدق :

ألا قطع الرحمن ظهر مطية أتتنا تهادى من دمشق بخالد
فكيف يؤم الناس من كانت أمه تدين بأن الله ليس بواحد
بنى بيعة فيها النصارى لامه ويهدم من كفر منار المساجد

وكان خالد قد أمر بهدم منار المساجد ، لانه بلغه ان شاعرا قال:

ليتني في المؤذنين حياتي انهم يبصرون من في السطوح
فيشيرون أو تشير اليهم بالهوى كل ذات دَلٍّ مليح

فلما سمع هذا الشعر أمر بهدمها

وكان يبالغ في سب أمير المؤمنين علي عليه السلام، تؤثر عنه حكايات في ذلك عديدة وكان مذمماً للغاية، هجاه الفرزدق والاعشى بأشعار كثيرة ويذكر به أقوال تقشعر لذكرها الابدان ، وقد قص شيئا منها ابن الاثير وأبو الفرج الاصبهاني ، ولما قصها أبو الفرج قال في اثرها : اللهم العن خالدا واخزه وجدد على روحه العذاب

ثم آل أمر خالد الى أن غضب عليه هشام، وعزله عن العراق، وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفي، وأمره بحبسه وتعذيبه، فحبسه ثمانية عشر شهرا بالحيرة مع ابنه، الى أن أمر الوليد بضربه فضربه، ثم حبس، ثم حمل الى يوسف بن عمر فعذبه عذابا شديدا، ثم قتله ودفنه بالحيرة في المحرم سنة ١٢٦

وكانت غلة خالد بالعراق عشرين الف الف، ولما ختن نائبه طارق ابنه بالكوفة أهدي اليه خالد الف وصيف ووصيفة سوى الاموال والثياب، ولما ولي بعد خالد يوسف الثقفي قال يحيى بن نوفل يمدحه، ويعرض بأعمال خالد الذميمة:

أتانا وأهل الشرك أهل زكاتنا وحكامنا فيما نسر ونجهر
فلما أتانا يوسف الخير أشرقت له الارض حتى كل واد منور
وحتى رأينا العدل في الناس ظاهرا وما كان من قبل القبيلي يظهر

ومن أراد استيفاء أحواله وأخباره، بأفظع من هذا، مما نصون عنه بحثنا المسطور فليرجع الى كتاب الاغاني لابي الفرج الاصبهاني رحمه الله

**

(١٣) حمل الاثرية على المجهمية والاغراء بهم

قال الشهرستاني: كان السلف كلهم من أشد الرادين على جهم ونسبته الى التعطيل اه ومن أشهر كتبهم في الرد عليه كتاب الامام أحمد بن حنبل في الرد على الجهمية، وكتاب الامام الدارمي، وكتاب التوحيد والرد على الجهمية للامام البخاري في آخر صحيحه، وفي كتابه خلق الافعال أيضاً. وكتاب لابن أبي حاتم وغير هؤلاء.

ومن أوسع من عني بالرد عليهم من المتأخرين الامام ابن تيمية في

عدة من مؤلفاته وفتاويه، وكذلك تلميذه الامام ابن القيم في بعض مؤلفاته مثل كتاب اجتماع الجيوش الاسلامية على حرب المعطلة والجهمية وكتاب الكافية الشافية

وقد عد الامام أبو القاسم الطبري الحافظ في كتابه (شرح أصول السنة) من قال «القرآن كلام الله غير مخلوق» نحواً من خمسمائة وخمسين نفساً من التابعين الائمة المرضيين، على اختلاف الاعصار، ومضي السنين والاعوام، (قال) وفيهم نحو من مائة امام، ممن أخذ الناس بقولهم، وتدينوا بمذاهبهم، لا ينكر عليهم منكر، (قال) ومن أنكر قولهم استتابوه، او أمروا بقتله أو نفيه أو صلبه [1] قال ولا خلاف بين الامة ان أول من قال «القرآن مخلوق» جعد بن درهم في سني نيف وعشرين ومائة ثم جهم بن صفوان اه (للرسالة بقية)

فرنسا الاسلامية

جاء في جريدة (المفيد) المفيدة تحت هذا العنوان ما يأتي:

أثبتنا منذ أيام في صدر هذه الجريدة تعريب مقالة للطان أثبت فيها حكومتها على ادارتها الجائرة في المستعمرات الافريقية ثم عثرنا اليوم على العدد الاول من جريدة فرنساوية صدرت حديثاً في باريس عنوانها «فرنسا الاسلامية» ومديرها الموسيو بول بروزون. غايتها البحث في أفريقية الفرنساوية، وحض حكومة الجمهورية على تبديل شكل ادارتها في هذه البلاد، لاجل استرضاء أهلها والاستيثاق من مودتهم، وجميع ماتقدم يدل دلالة واضحة على ان اكثر المفكرين من أمة الفرنسيس يرون ان استمرار فرنسا على انفاذ الخطة الادارية المعتادة في افريقية الشمالية، أمر يضر بسياستها أعظم الضرر فضلا عن كونه لايتفق مع مبادئ دولة اشتهرت بانها مهد الحرية

(١) هذا موضع الشاهد من قولنا في الترجمة: والاغراء بهم